الوطن

(٣-٣)

سأخون ذاكرتي

رحمة المغيزوي*

٢- ذاكرة حسن

(١)

بعد سنوات عديدة كنا سنذكر تحديدا ذك اليوم الذي ركض فيه " حسن " طويلا دون توقف وبدون هدف يفهمه الحاضرون إلا ليمنعنا من رؤية الدموع الكثيرة التي ملأت عينيه ، شعرنا للحظة أنه يسابق الريح وأنه يمنح السراب كل ذلك الحزن المتراكم في قلبه والذي غالبا ما ظهر في التماعة العينين الواسعتين ، كان يمد يده إلى الأمام، إلى الفضاء والسماء المعلقة فوق رأسه، كنا سنتذكر يومها أيضا أمنا "تجفة بنت حسن" وحبات النوى اليابسة في كف يدها ، علنا كانت تدور بظهر منحن على النخيل القليلة المتبقية لها في الأرض اليابسة وتجمع حبات النوى ، وفي كل مرة سألها أحدنا عن الجدوى من جمع النوى اليابس والميت ، كانت توجه وجهها جهة السائل وترفع حبة النوى في اتجاهه وتقول:

- أنت ما تعرف؟! من ها النوى ، راح تطلع حياة ، ما سمعت "يخرج الحي من الميت"؟!.

وفي تلك الفترة تحديدا كان النمل قد حفر ثقبا صغيرا في الجفن الأسفل من عينها اليمنى ، ارتاع " حسن " عندما رآه ،في البداية كان قد جلس بجانب سريرها المبسوط على الأرض ، اتكأ إلى الجدار القريب منها ، رفع عينيه إلى سقف الغربة وأخذ يتحدث إليها كعادته عن كل أمر طرأ على باله ، وكانت هي ترد عليه بصوت ضعيف تشعره به أنها مصغية له ،انتظر أن تنتظم أنفاسها وتنام ككل ليلة ، ولكنه شعر أنها غيرت من وضعيتها وأصبحت أنفاسها قريبة ، قرب وجهه منها ، رآها ، كانت نملة واحدة حمراء ، تسلقت دون أن يلاحظها من حبات النوى إلى الجفن ، قتلها "حسن " بين أصابعه ، بعدها بأيام رأى ثقبا جديدا في العين الأخرى ، وعندما قرر " حسن " الحضور إلى دار أمي وأخبارها بالأمر كان الحفر الصغيرة تحت الجفنين قد اتسعت ، وفي الغرفة المتواضعة ثقل على أمي أن تعاين تلك الحفر دون تشعر بانقباض في صدرها جعل يديها ترجف وهي تشاهد وكانت " أمنا " تجفة بنت حسن " قد بدأت تشعر أن في عينيها عطب آخر غير العمى الذي أصابها مبكرا ، وفي أوقات متباعدة أخذت تشتكي من حرقة العينين والأحلام الكثيرة التي بدأت الشياطين تزورها فيها ، وتضجر من الماء الذي بدأ "حسن" يستخدمه بكثرة على ثقوب النمل.

في قرارة نفسي كنت أحس بدافع "حسن " ، - الولد الذي كبر فجأة متخطيا أترابه في الجسامة والطول، في الجري المتواصل كانت سمرته الحلوة وصمته الذي قد يمتد طوال اليوم أكثر ما يجعل الآخرين يظنون أنه فقد شيئا ما في ذات يوم من أيام عمره ،شيئا لم يعوضه إلا السهر الطويل الذي يقضيه في غرفة جدته " تجفة بنت حسن " ،كنا موقنين أن هنالك سرا أكبر من علاقة الجدة بحفيدها تربط حسن بـ"تجفة بنت حسن"، كانت العلاقة علاقة وجود وحياة ، كل منهما مرتبط بآخر بحبل سري قوته مرور كل تلك السنوات ، التي خرجت فيها أمنا "تجفة" بصحن في يدها تبحث عن لقمة الطعام لـ"حسن" في وقت كان عوده ما يزال طريا وغضا.

فجأة انبثقت طاقة من نور وكادت ذاكرة أمي الشحيحة بالأخبار أن تحل كل الألغاز التي أردت معرفتها عن "حسن"، أمسكت يد حسن الذي كان يحملق في وجه جدته وقالت له بتصميم غريب.

- تجفة بنت حسن كانت تربيك حتى برموش عينها لا تخليها وحدها الحين.

تحرك يد "حسن" في يد أمي وكاد أن يركض ليعطي للفراغ أمامه كل الحزن المختزن فيها ولكنها شدت عليه أكثر وقالت بغصة دمع في حلقها

- والله أنا شفتها تاخذك قطعة لحمة حمراء وطوف بك بيت بيت حتى تلقى من يرضعك.

في حين كانت أمي تتحدث عن "تجفة بنت حسن" وكيف وقفت سابقا بباب "شيخة بنت سليمان" وقالت وهي ترفع أحد ثدييها أمامها

- يا شيخة هذا صاير يابس ، ما فيه غير جلد وعروق ميتة ، ارحمي هاليتيم.

كان " حسن " يجري وهو يحدق إلى السماء ، أما أنا فقد كنت أعرف أن "حسن" سيكون شجرة بلا أي غصن يمده إلى الحياة أو أي جذر يربطه بأرض ثابتة إذا ما فارقت أمنا " تجفة " هذه الحياة . لا أعرف لماذا ضعفت تلك الذاكرة فجأة ، كان انطفأ غريبا ، شعرت أن الخرف يأكل الجزء الخاص بـ"حسن" وأن كل ما يرتبط به أصبح في منطقة ضبابية ، وأن له ألم يشبه وخز الحسك الجاف في الحلق . حتى عندما سألني الأستاذ علي " عنه ذات يوم ، لم أستطع أنه أخبره الحقيقة ،صمت برهة أضاف هو

- الولد يشبه جدته ، أكيد هو من أحسن الشباب الحين.

قررت سأخون ذاكرتي تدريجيا ، الأسلوب الذي أنتقل به من الأشياء المهمة إلى الأشياء الأقل أهمية هو أن أحدث شقا وجرفت في اتجاه العرض ومن بعده ينمو فيه حاجزا طريا.

لا أنكر بعد شهر من التحضيرات للزواج المرتقب في الأسرة أنني كنت أجزم أن ما سأفعله سيكون مسجلا لي وحدي ، إن كان هنالك من سيشاركني تلك الأشياء فستكون ذاكرتي البيضاء تماما ، عندما جلست في شرفة بيتي ووضعت رأسي بين يدي وتكورت شعرت أني لدي الحق كل الحق بأن أملك ذاكرة لم تدنس بعد تلك الوجوه والأصوات الأحداث التي عشتها في ظرف العشرين عاما الماضية ، إلى هنا وكل الأمور يجب أن توضع لها نقطة نهاية كبيرة، استمعت إلى " علي " طويلا حتى بت أرسم ملامح العنينين الحوراوين اللتان تغزل بهما في كل مرة تحدث فيها عنها، وسرت على الطريق الذي لعبت مع "حسن"، نسيت برغبة ملحة مني صورته ونحن نضع ماء البحر في كفوفنا الصغيرة ثم نفتح أصابعنا ونراه يتساقط قطرات وعندما نتحسسه باللسان كان "حسن " يقلدني فيقذف البصاق من فمه ويصرخ

- مر.

وأضحك

- مالح .

وأنهيت في داخلي كل الجدل الذي أثاره حضور وغياب " تجفة بنت حسن " ،بصوتها الضعيف وهي تخرج من حجرتها وتصرخ في الناس .

- لا تخلون " حسن " يسافر ، حسن بعده صغير ، حسن بعده يتيم ، واليتيم ما يقهر. لا تخلونه يسافر.

في لحظة الذاكرة البيضاء تلك كنت سأخبر حتى " راشد " أنني سأقيل ذاكرتي من حمى الثرثرة التي كنا نمارسها معا كنوع من التذكر العكسي للأحداث التي تؤرقنا وتدفعنا إلى نذرفها كدمع في نهاية بعض الأيام التي عشناها، ربما سأغفر له كل ذلك الإهمال الذي كان منه اتجاهي واتجاه أمي الأهم أنني سأغادر إلى النسيان، فإذا كانت الأشياء لا تبقى إلا بالتذكر فان النسيان محو كل أثار التذكر سيحيلها إلى سراب ، سأنسى وتصبح الأشياء في الذاكرة كظل كالعدم، في قرارة نفسي كنت قد وفيت بالنذر وشعرت بالراحة التي صرحت بها أمي وهي تضع يدها على كتفي وتنظر إلى أخي "راشد" وهو يختال فرحا بين أصحابه في ليلة زفافه، اعتصرت بأصابعها الطويلة اللحم القليل على كتفي وقالت بدموع:

- خلصت من الدنيا كلها،راشد ألحين متزوج ، وباقي أنت .

(٢)

سأحرق تلك الورقة طويلا، ربما احتجت إلى أن أكتبها أكثر من مرة ، وأن أمزقها مرة وأعرضها لسر النار مرة أخرى ، الآن وبعد سفر "الأستاذ علي" كان حضور أيام حسن قويا ، شعرت بارتداد نحو الماضي ، كان كلام الأستاذ يبقيني في دائرة الاستماع إليه ومعرفة قصته وتجاهل ما حدث معي ، أخبرني أنها رحلت دون سبب يفهمه وذالك ما أبقى حية في داخله أما الآن " حسن " موجود تحت وسادتي ، وتجفة بنت حسن أمامي ، أراها في أكثر الأيام تعلقا في ذاكرتي ،عندما تسمع صوتي تنادي علي بحنان وهي في وسط النساء.

- سامية بنتي تعالي.

تتحسس أمامها الأطباق الموضوع ، تناولني منها قرصين من الخبز بالعسل ، أشعر بها تراقبني وأنا اكلها بهدوء وأتطلع في وجه النسوة ، تمسك بيدي برفق ، وعندما أنتهي من الأكل تضع رأسي الصغير على فخذها ، تمرر أصابعها على شعري ، تهمس لي:

- باكر من تكبري راح تكوني زوجه لحسن .

- وباكر من تكبرين راح تشوفين من "حسن " اللي ما شفته حرمة من رجل.

أفلت منها ، تنادي على أمي وهي تضحك

- سمعتي يا أم راشد " ترا سامية من تكبر أريدها تكون حال ولدي حسن .

تضحك النسوة من خلفها ، أسمع صوت "عويش "

- تجهيز العروس وحناها على "عويش" وهذا نذر علي .

أفلت من جلسة النساء ، أخبئ نفسي في البيت بعيدا عن "حسن " ، أتصور أن "حسن " يمكن أن يأخذني من بيتنا دون علم خاصة وأن أمي رفعت رأسها موافقة على كلام " جدتي تجفة " وقالت

- ما راح ألقى أحسن من ولد بنتك لسامية .

عندما عدت من الجامعة مررت بالسوق ، كانت نفسي منشرحة فاشتريت ، كل ما كانت أمي تريده من الخبز والبيض والخضار ، وقبل أن أفتح الباب كنت ألوم نفسي وأشعر أني أعاتبها بنظراتي عن ما حدث ، قررت أن أسامحها ، أن آخذ بيدها كي لا تخاف وتشك وأن تعود كما كانت ، دخلت كان الهدوء مطبقا على البيت ، قدرت أنها نائمة ، سرت بهدوء إلى غرفة النوم ، كان السرير مرتبا كما تركته في الصباح ، عرجت إلى المطبخ ووضعت الأغراض ، لسنوات كنت متأكدة أن أمي لم تكن السبب ، ربما النجوم ، ربما الجدران ، ربما "حسن ذاته ، ولكن أمي كانت بعيدة ومع ذلك حملناها كلنا بعلم أو بدون علم ما حدث ذلك اليوم ، خرجت من المطبخ ،خلعت عباءتي ناديت عليها بالاسم الذي تحبه

- يا أم راشد وينك؟.

فتحت باب غرفتها - شممت رائحة البخور التي اعتادت ضعها في الغرفة حتى بعد أن مات أبي قبل عامين ، لم أجدها ، صعدت إلى الأعلى كان الطابق العلوي موضوعا لراشد ولأبنائه القادمون ولكن راشد تركنا ليسكن في بيت بعيد عنا ، بهدوء فتحت باب الغرفة ، كانت أمي جالسة في الظلام تبكي ، كانت الدماء تملأ وجهها والجدار المواجه لها وعندما رأتني ، أعدت ما كانت تفعله ، ضربت رأسها بالجدار، منعتها وحضنتها بقوة، قاومتني وصرخت

- خليني أموت ، لولاي ما كان حسن مات ، أنا السبب . أمي " تجفة " ما راح تسامحني لا دنيا ولا آخرة . أمه وهي حامل فيه وصتني به خير وأنا قتلته ، أنا ركضت وراه ، وهو تعثر وطاح على طابوق .

بكيت معها وقلت

- حسن مات موتة ربه ، ما أحد السبب لا أنا ولا أنت .

بقيت أمي تشهق في حضني وقتا طويلا، رفضت كل شيء حتى أن تستقبل "راشد" الذي وقف على بابها غرفتها.

عندما كنت في سن العاشرة مات "حسن" ، هذا ما أذكره الآن في شرفة البيت ،لم أدرك ما هو الموت ولكني كنت أحس بالغصة التي تبقى في القلوب والتي تحدثت عنها النساء في جلستهن ، كان داخلي خاليا تماما إلا من الهواء الذي يحرك صوت أو صورة "حسن" في داخلي ، كان كما وصفته عويش بعد شهر من موته

- ذاك الولد ذهب ، ما شيء مثله في أولاد الحارة . يا الله يا موت كيف تاخذ "حسن " وهو بعده في عمر البدر.

وقبل أن يموت بأسبوع كانت "تجفة بنت حسن" ترد على أسئلة نحن الاثنين ، قالت قبل أن أنام في بيتها

- النجوم كبيرة ها الليلة في السما .

سألتها

- أمي تجفة كيف شفتي النجوم وأنت ما تشوفي ؟

- أنا أشوف بقلبي يا بنتي .

تمددت بيني وبين حسن وقالت

- والحين ناموا والله ترا "مصبح ولد سلايم" راح ياكلكم .

سألها "حسن"

- ماه ، هو" مصبح ولد سلايم " ليش كبير؟!

- يقولون أنه يوم كان صغير ماتت أمه وما لاقى أحد يرضعه ، وكان يرضع من الكلبة اللي كان أبوه مربنها في بيتهم .

سألتها بفضول:

- ماه يعني اللي يشرب من حليب الكلاب يصير كبير وايد مثل "مصبح ولد سلايم".

- اللي يشرب بعد من حليب الحمير يصير كبيير وايد ومجنون.

سكت " حسن " قليلا ثم سأل بحزن

- يعني " مصبح ولد سلايم " مثلي ، أنا يتيم وهو يتيم.

لم تجب أمي " تجفة " عن السؤال ،قعد "حسن " مستويا ، سألها باهتمام

- ماه ، من تشبه أمي اللي ماتت؟

نهضت أمي "تجفة" مكانها وأعادت "حسن " إلى نومه الأول

- نام يا ولدي الله يهديك.

أعطت أمي "تجفة" ظهرها لحسن وأبقيت أنفاسها تجاهي، أحسست بها تغير هيئة نومها ، إلى ان قامت بعد انتصاف الليلة وأخذت تحدث نفسها بهمس

- سليمة الله يرحمك ويغفر لك، ولدك كبر، اليوم يسأل عنك ، وما أعرف ويش أقوله؟.

بعد تلك الليلة بدأت صحتها تتدهور ، وأخذت تحتفظ بحبات النوى في يدها بعد أن كانت تجمعها في إناء في بيتها . فقدت إحساسها بالأشياء من حولها ، حتى النمل الذي ثقب عينيها ، نقلت كل إحساسها بالضعف إلى "حسن" ، قربت أمي فمها من أذن "تجفة بنت حسن " ونادت عليها

- أمي تجفة ، أمي تجفة.

ردت عليها بأنين موجع .

- أه .

أقتربت أكثر

- أمي تجفة ، أنا أم راشد ، علامك ؟

سكتت ولم ترد ، رفعت أمي رأسها ، وأمسك بيد "حسن " وقالت

- لا اله إلا الله ، أمك "تجفة" تريدك الحين أكثر يا حسن . لا تروح عنها بعيد.

أفلت "حسن" من يد أمي وجرى دون توقف وهي تجري وراءه . بعد ذلك لم أره.

وصفن لي النساء ولم يسمح لي بالمشاهدة ، كانت الحلقة الكبيرة والمحكمة التي كونت حول "حسن" أحد الرجال دخل مخترقا أجساد النساء وحمل الجسد الصغير ، كانت أقدام " حسن " مدلاة خلف ظهر الرجل ، والنعال الصغيرة معلقة فيها فيما جهة رأسه تقطر دما ، لا أذكر تحديدا إلا الألم الذي شعرت به ، وقفت وحيدة والناس من حولي يركضون ، لم أشعر بنفسي إلا وأنا في أحضان أمي الملوثة بالدماء الحارة.

بعد عامين ماتت جدتي "تجفة بنت حسن " ، أصرت أمي على أبي أن نرحل من القرية ، وعندما تجاهلها ، بدأت تبكي لفترة طويلة وتنهض من نومها وهي تهذي باسم " تجفة بنت حسن " وتضمنا إليها وتقول له

- خايفة على أولادي ، ما أريد أسكن ها الحارة . بيع ها البيت وخلينا نطلع .

قبل أن نتقل فاجأني "مصبح ولد سلايم" عندما كنت واقفة في المكان الذي مات فيه حسن ، خفت من جسده الطويل ، تراجعت خطوتين ولكنه أمسك بحجر متثلم وكبير بين يديه

- حسن طاح على مثل ها الطابوقة . وهو من أهل الجنة ، باكر " حسن " يريدك تكبرين وتكونين معه.

أما "عويشة " فلم تقل شيئا إنما أمسكت بي وضمنتي اليها وغالبت الدموع وقالت

- لا تنسي خالتك "عويش " ، ويوم بتعرسين ترا الحنا علي .

(٣)

خطوة بعد أخرى صعدت إلى الطابق العلوي من بيتنا ، القيت نظرة على غرفة أخي "راشد " كنت قد حاولت إزالة أي أثر للدم منها، وتركت أمي تنام بهدوء في الغرفة، مر عام كامل منذ حاولت غسل الأشياء المؤلمة من ذاكرتي ، بقيت على خط تماس بعيد مع الأستاذ "علي"، يتذكرني برسالة ظل يكررها دائما

- كيف نسيت كل شيء؟ ما يعذبني أنها لم ترسل لي رسالة تخبرني فيها لم تزوجت بابن خالها ، وهي تحبني؟!

في اللحظات الأخيرة ، كنت قد اقتنعت تماما أن النجوم هي ما يشكل مفترق كل الأشياء التي كانت تحوم حول ذاكرتي ، النجوم التي تغزو السماء بكثافة معلنة عن جمالها الصريح الذي لا ينتهي على مرور كل الأوقات الملتفة بالليل والعتمة ، في تلك الأيام كان يكفيني أن تدلني النجوم على موقع صورة " حسن" في ذاكرتي وهو يفترش التراب في ليالي الصيف القصيرة ومن ثم يرفع أصبعه الصغير إلى الأعلى حيث السماء البعيدة ويشير راسما خطا وهميا يشبه المسافة التي أصبحت تكبر بيننا بفعل الغربة.

عندها قال حسن كما في كل مرة

- هذا أنا وذيك الحارة .

بين النجوم كانت الحارة تبدو مشتتة بعيدة في مكانها عن مكان "حسن " ، وعندما ألح عليه وأغرس قدمي الصغيرتان في التراب البارد وأسأله

- وين نجمتي يا حسن ؟

كان يغمض عينيه ويغيب بعيدا عن السماء ، في وقتها تظهر سمرة وجهه وطول ساقيه ويشير إلى السماء

- أنت ذيك النجمة البعيدة .

في ليلتي هذه والأرق يوقظ " حسن " من سبات السنوات الفائتة شعرت بظلام الليل الذي بدا عظيما هذا المساء وهو يتخلل الزوايا الهشة في نفسي ، شعرت بـ"حسن" وكيف كان ممتلئا بالغربة وهو يعتلي النخلة الطويلة ومن ثم يلتفت إلى الفضاء الواسع أمامه ويرى صور كل الذين حملهم في جيب ذاكرته البعيدة ومن ثم يزفر هواء ثقيلا من رئتيه

- تعالي يا سامية وشوفي النجوم .

بعد كل الرسائل الخفية من "حسن " كنت أشعر بالتشظي ، أعود إلى جذور الوحدة التي بدأت تسكنني بعد انتقاله وأمي " تجفة بنت حسن " إلى المقبرة الكبيرة ، كان الأمر بالنسبة له أشبه بلعبة ، يرسل دائما في اللحظات التي تتآكل فيها جوانب روحي ، ويكون بعيدا عن مدى النجوم ونورها ، وكأنه ينقل ذاكرته بخط متوازي لذاكرتي ، فألتصق بالذاكرتين كلما احتجت إلى للحماية من التغيرات الكثيرة التي أمر بها. لم يشاطر "حسن" في حبه للنجوم إلا أمي " تجفة بنت حسن " ، في ذاكرتي رأيتها وهي تنظر للأعلى وكأنها تقرأ بين سطور الغيب ، قالت لي أنها تبحث عن نجم غائب من زمن بعيد ، وفي لحظات تنقل بصرها بين السماء وحسن وتقول له :

- حسن مثل نجم بو ذيل ، يطلع مرة وحدة بس وبعدها يروح .

أسمع صوت أمي تنادي علي بصوتها الضعيف

- يا بنتي الليل له ناس والنهار له ناس ، ما زين عليك تعالي نامي .

كانت رحلة الليل قد شارفت على النهاية و"حسن " ما يزال قابعا على أعلى مستويات ذاكرتي ، أغفو قليلا أتصور أنني تسللت إلى السرير ، ألصقت ظهري بظهر أمي ، شعرت بالأمان الأول وبأني أعود طفلة. أركض ويركض "حسن"، يمسك بجدائلي ورائي أنزل بهدوء إلى أني أقبل جبينها ، أناولها الدواء ، تنظر إلي وتقول:

- الله يخليك يا بنتي ، وأشوف أولادك في ها البيت

تركت أوراقي والقلم مبعثرة على طول الطاولة ،أسير خطوات .في السماء كانت هنالك نجمة صغيرة ترسل تتداخل الأصوات فلا أميزها ، صوت أمي

- سامية ، يا سامية تعالي ، تعالي عطيني الدوا ، أحس نفسي مريضة .

صوت "حسن" يضحك بسرور ويشد علي يدي ويدعوني إلى السماء

- سامية أنت ذيك النجمة الحلوة .

أرفع قدمي على حافة الشرفة ، أشعر بالفراغ أمسك بذيل بنجمة وأطير.■

* ما بين القوسين نصوص من رسائل وصلت إلى الكاتبة

■ اللوحة للفنان عبدالكريم الميمني